

سبب النزول ليس المقصد: الحجاب نموذجاً

2008-12-22

بقلم د. أحمد خيرى العمري

"...أقول هذا كله، لأن هناك استراتيجية واضحة الآن، صارت تستثمر الخلط الموجود بين الأمرين، لصالح إبطال النص بأكمله بداعي أن سبب النزول قد اختفى، وبالتالي لم يعد للنص (وما يحتويه من حكم شرعي) موقع فاعل من الإعراب..."

نؤمن، كجزء أساسي من إيماننا بديننا، أن القرآن الكريم فوق الزمان والمكان، لكننا نؤمن أيضاً، أن لأولية القرآن نقاط تماس مع الواقع، نتجت عن تنزيله من مكنن أزيلته الخارجة عن كل تصنيف، إلى الواقع الإنساني المتبدل باستمرار.

نقاط التماس هذه، أو إحدائيات التنزيل، المحكومة مسبقاً بعلم الله الأزلي الذي وسع وأحاط كل شيء، يجب أن تملك ارتباطاً بهذا الواقع الذي تنزل عليه، لكن هذا لا يعني على الإطلاق، أن الواقع هو الذي يحكم هذا التنزيل أو يتحكم به. الواقع هنا، في هذه الحالة، هو مجرد 'مهبط'. لنزول الوحي، والمهبط يمكن أن يكون عابراً، بل هو عابرٌ على الأغلب، ما دام الواقع متغيراً باستمرار، أما الوحي النازل، فقد نزل، وترك مهبطه، إلى حيث الواقع ككل.

نقطة التماس إذن، بين الوحي الأزلي، والواقع الإنساني، هي نقطة تماس عابرة، إنها نقطة اختراق لا بد منها من أجل الالتحام، لكنها مجرد نقطة، أدت مهمتها وانتهت لحظة الاختراق، إنها مثل حقنة دوائية تحمل الدواء إلى الجسم، وتخترق الجسم في نقطة ما من الوريد، لتنتقل إلى أوردة الجسم كله، ولكن هذه النقطة لن تتحكم بهذا الجريان إطلاقاً.

لكن نقطة التماس هذه، باعتبارها المدخل لما هو أزلي، يجب أن تكون مرتبطة بشروط موضوعية تسهل فهم النص الأزلي وقراءته من قبل العقل الإنساني.. وهكذا، فإن واقعة بدر، ستكون مدخلاً لنص مختلف عن نص يدخل واقعة أحد، أو الفتح، أو عموم المرحلة الملكية.. لكن هذا لا يعني على الإطلاق، أن النص (أو قراءته) ستظل محكومة بمجرد نقطة الالتحام تلك.. ففي حياتنا دوماً واقعة مثل بدر أو أحد أو الفتح.

ويمكنك أن تكون في قمة زهو انتصاراتك فتبعيدك 'الأنفال' إلى واقعك كي لا تزهو أكثر مما يكون، ويمكن أن تكون في درك هزيمتك فترتب عليك 'آل عمران' وتقويك من أجل أن تجعلك تقوم من دركك وكيوتك نحو قمة خلقت من أجلك.

والسبب في اختيار نقطة معينة للاختراق دون غيرها واضح، وقد وضحه النص القرآني نفسه، {قال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً} 25 / 32.

فالقرآن جملة واحدة فعلاً، لكن تنزيله 'مرتلاً' كان من أجل التثبيت: تثبيت الفؤاد عبر فهم النص مرتبطاً بالواقع.. وهو واقع سيتغير بالتأكيد، وسيكون للنص قراءة أخرى تثبت الفؤاد أيضاً.. ولا تتناقض مع القراءة السابقة.

كل هذه المقدمة كانت من أجل توضيح أن سبب نزول النص هو ليس المقصد منه، إنه مجرد نقطة تماس الأزلي مع العابر، مجرد مدخل، مجرد اختراق دخل من خلاله النص إلى الواقع، وكان للواقع شروطه وظروفه التي يمكن من خلالها فهم جزئي للنص.

سبب النزول، بهذا، يمكن أن يكون جزءاً من المقصد، وليس المقصد كله، لكنه محض جزء عابر أما المقصد من النص فإنه فوق ذلك، يظل المقصد من النص، عبر تبدل الأزمان يضح القراءات التي لن تتناقض على الإطلاق مع بعضها، لكنها ستتعدد.. مرة أخرى، وأكد واثبت: سبب النزول ليس هو المقصد، لكنه يكون أحياناً، جزءاً منه..

أقول هذا كله، لأن هناك استراتيجية واضحة الآن، صارت تستثمر الخلط الموجود بين الأمرين، لصالح إبطال النص بأكمله بداعي أن سبب النزول قد اختفى، وبالتالي لم يعد للنص (وما يحتويه من حكم شرعي) موقع فاعل من الإعراب.

وهذه الاستراتيجية تفترض كما هو واضح أن سبب النزول هو المقصد، وتبني على فرضيتها هذه متتالية من النتائج مرتبطة بتلك الفرضية المغلوطة.. وهي استراتيجية تجرد من بروج لها، وتجرد من ينخدع بما أيضاً، المرّوجون هم طبعاً أدياء التجديد الديني وغيرهم من العلمانيين أو الليبراليين، الذين يستخدمون كل ما يمكن من الوسائل من أجل إبطال النص، وعزل الدين، لا عن الدولة فحسب كما يدعون، بل عن الدنيا ككل، عن الحياة بأسرها.

أوضح مثال على كل ما سبق، تعامل هؤلاء مع آية الحجاب (غطاء الرأس) ومحاولتهم الدمج بين سبب النزول والمقصد من أجل إبطال الحكم الشرعي فيها.. فحسب هؤلاء نزول الآية كان من أجل التفريق بين النساء الحرائر والإماء (وهو أمر يحتاج إلى تفصيل سنأتي عليه لاحقاً)، وبما أنه لم يعد هناك اليوم رقّ ورفيق، فإنه لا يوجد داع لهذا التفريق، وبالتالي لم يعد هناك حاجة للحجاب أساساً، وكفى الله المؤمنين الحجاب.

الاستراتيجية إذن بسيطة وقد تبدو مقنعة للبعض، خاصة وأن الأمر كله مدعوم بقوة التغريب وسطوته الذي لا يزال يعتبر 'الحجاب' أمراً غير مقبول يتناقض مع الرؤية الغربية للمرأة وللحرية الشخصية عموماً. هكذا يأتي الحل عبر الخلط بين سبب النزول والمقصد، لكي يبدو 'قلع الحجاب' عقلياً ومبنيّاً على مقصد قرآني ولا علاقة له بالتغريب.. (أو هكذا يزعمون..!)

هذا كله سيدفعنا إلى تفحص الأمر ككل، علماً أن آية الحجاب هنا هي مجرد نموذج لآلية الدمج العائد بين سبب النزول والمقصد، وهي آلية تستهدف إبطال النص كما تقدم.

تسود طبعاً، في الكتب الفقهية، مقولة أن الحجاب إنما فرض من أجل التفريق بين الإماء والحرائر، ولن يخلو كتاب من كتب التفسير من هذا القول وهو أمر طبيعي إذ أن أغلب أمهات كتب التفسير قد كتبت في فترة كان الرق لا يزال موجوداً، ولهذا فقد كان التراكم التفسيري (في غالبه) يتعامل مع هذا الأمر بشكل طبيعي باعتبار أن 'الإماء' لا يزالن موجودات.. لكن هذا طبعاً لا يعني على الإطلاق أن التراكم التفسيري قد قصر سبب نزول الحجاب على هذا فقط.

تفحص مجمل الأحاديث والأقوال الواردة سيدلنا إلى ما يلي:

أولاً. أن النص القرآني المعني لم يرد فيه أي إشارة إلى موضوع التفريق بين الحرة والأمة.. (يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفوراً رحيماً) الأحزاب 59 .

ثانياً. أن حصر سبب النزول بكونه نزل للتفريق بين الأمة والحرة جاء من طريق واحد فقط هو طريق أبي مالك الأشجعي الذي اعتمده السيوطي في أسباب نزوله، وأبو مالك الأشجعي ليس له صحبة بل هو من التابعين، أي إنه لم يحضر نقطة التماس تلك، وإنما نقل ما فهمه منها.. وقد ذكر غير واحد من أهل العلم في ذلك الكثير، ليس بخصوص آية الحجاب تحديداً، بل بعموم إن سبب النزول لكي يعتمد يجب أن ينقل ممن حضر واقعة النزول.. وهو أمر لا يتوفر في ما نقله الأشجعي.

ثالثاً. نقل الطبري في تفسيره للآية (كان بالمدينة رجال من المنافقين إذا مرت بهم امرأة سيئة الهيئة والزي حسب المنافقون إنهما مزينة (= "زانية") وإنها من بغيتها فكانوا يؤذون المؤمنات بالرفث، ثم يكمل فإذا كان زيهن حسناً لم يطمع فيهن المنافقون). صحيح أنه قال أيضاً ضمن ما قال في وصف المنافقين (ولا يعلمون الحرة من الأمة)، إلا أن السياق في أكمله كان يتحدث عن نسوة منافقات زانيات كما هو واضح.

رابعاً . يقول الضحاك والكلبي : أن الآية نزلت في الزناة الذين كانوا يمشون في طرق المدينة يتبعون النساء إذا برزن بالليل لقضاء حوائجهن، فيغمزون المرأة، فإن سكنت اتبعوها، وإن زجرتم انتهوا عنها.

أي إن الأمر كان في حقيقته 'تحرشاً' بلغتنا المعاصرة، تحرش يقصد به معرفة نية المرأة إن كانت زانية 'أو عفيفة'، وليس اغتصاباً سرياً كما يروج البعض، أي إن الأمة الشريفة الطاهرة، كانت تكتفي بالزجر لترد المنافقين عنها، ولم يعلم قطعاً أن أحدهم قد اعتدى على أمة رفضت التحرش.

خامساً . قال الرازي في تفسيره للآية: ((المراد: يعرفن أنفسهن لأن من تستر وجهها مع أنه ليس بعورة لا يطمع فيها أن تكشف عورتها فيعرفن أنفسهن مستورات لا يمكن طلب الزنا منهن)). وتفسير الرازي هنا لا يذكر موضوع الحرة والأمة قط، بل التفريق بين الشريفة وغيرها فحسب.

السؤال الذي سيرز هنا: هل كان التفريق بين الإمام والحرائر، يهدف إلى تعريض الإمام للأذى، وحماية الحرائر فحسب؟ والحقيقة أن هذا يحتاج إلى تفصيل، فالعرف كان عند العرب حتى في جاهليتهم، أن الحرة لا تزني قط، وأن الزنا للمملوكة فقط، وكان هذا العرف حاجزاً ليس أمام الأنثى فقط، بل حتى أمام الرجال، ولذا لم يكونوا يطلبون الزنا أو يبتغونه أصلاً إلا عند الإمام.

كان هذا في الجاهلية، ولما جاء الإسلام حرم الزنا تماماً، على الحرائر والإماء، نساء ورجالاً على حد سواء، لكننا نعرف قطعاً، أن الإسلام لم يصنع مدينة فاضلة افتراضية، وأنه كان هناك منافقون، ومنافقات، وكان هناك بشر سيضعفون أمام شهواتهم، خاصة أن هذه الشهوات كانت قد قولها العرف الجاهلي في عادات معينة إلى عهد قريب.

ومن الطبيعي جداً، أن هؤلاء كانوا سيلتقون تحت جنح الظلام ليمارسوا ما صار حراماً، لكن ولأن الظلام كان سيضم نساء شريفات خرجن لقضاء الحاجة، فإن ذلك كان سيقضي حتماً وضع حد بين هؤلاء وأولئك.

إذن هل تركت الإمام لمصيرهن أمام ذناب المنافقين؟ الحقيقة أن 'بعض الإمام' كن في تلك الفترة بالذات سلاحاً بيد المنافقين، فقد ثبت أن المنافقين كانوا يكرهون على البغاء، كما جاء في القرآن الكريم (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً) (النور / 33)، وكما ثبت أن بعض المنافقين كان يفرض على الإمام خراجاً (ضريبة) عليها أن تدفعها له لقاء بيعها لجسدها، وكان عبد الله بن أبي زعيم المنافقين وحده يمتلك ست جوارٍ يشغلهن في البغاء.

وهكذا، فإن الظهور بزني موحد . بين الإمام والحرائر . كان سيضع المنافقين على التعرض للحرائر (بالذات للمؤمنات ولنساء النبي وبناته) وكان واضحاً أنهم سيستغلون ذلك للتمادي بحجة أنهم لم يقصدوا الإساءة لأنهم لم يعرفوا أنها حرة، وهكذا فإن وضع السوية بين الإمام والحرائر كان سيستغل فوراً من قبل المنافقين لإلحاق الأذى بالمؤمنات.. وكانت المرحلة كلها حرجة وخطرة، وكان المنافقون يستغلون كل وسيلة ممكنة لتخريب المجتمع الوليد..

ما ذنب الإمام الشريفات إذن، كي لا يتمتعن بالحماية التي وفرتها الآية الكريمة؟..

في هذه المرحلة، لم يتغير شيء على الإمام الشريفات، لأنهن تعودن على التعامل مع تلك التحرشات عبر مواجهة رقت وبداءة المنافقين بالزجر، أما 'الحرائر' فلم يكن يعرفن ذلك، ولم يكن يعرفن كيف يواجهنه، وكان سكوتهن مثلاً (كما سيحدث اليوم) سيعد تشجيعاً للمنافقين لأن أسلوب الإمام غير الشريفات كان كذلك.. وهذا كان سيجعل المنافقين يتمادون في الأذى حتى لو كانوا يعلمون أن النسوة حرائر ولا يتجاوبن مع مطلب الزنا، لكنهم كانوا يريدون أصلاً التسبب بهذا الحرج..

وهكذا فإن الظهور بمظهر واحد يوحد بين النساء كان سيسبب مشاكل اجتماعية لا حصر لها، وكان المجتمع في غنى عنها آنذاك، خاصة وأن الإمام العفيفات لم يشتكين، لقد كن يعرفن كيف يتعاملن مع الأمر.. وهو تعامل قد لا يخلو من فظاظه وربما بذاءة ولا يمكن تعميمه إطلاقاً ليصير سلوك النسوة في كل زمان ومكان كما سيقترح من يريد إبطال النص.

ويجب التنبيه هنا أن ما يروج من أن الإمام كن يمشين وقد أظهرن شعورهن وصدورهن، وأشياء مماثلة يطبل لها البعض لأسباب لا تخفى، هو أمر مغلوط ولا أصل له. وما يروج من أن عمر ضرب أمةً لأنها ارتدت الحجاب أمر مبالغ فيه، فقد نأها عن ارتداء 'القناع' فحسب.. (أي إخفاء وجهها..)

أما ما يذكر من أن إماء عمر كن يكشفن شعورهن وأنداءهن فهذه الواقعة ليست ضعيفة أو موضوعة فحسب، بل إنها بلا سند أصلاً ذكرت في كنز العمال وسواه بلا أي سند، ومن الواضح طبعاً أن أصلها هو الحقد على الخليفة الذي كان من ضمن إنجازاته إزالة عرش كسرى ودولته.

نذكر مرة أخرى، أن النص القرآني تعالى تماماً عن موضوع التفريق بين الإمام والحرائر، وأن نقطة التماس، سبب النزول، وإن كانت تحتوي على ذلك، إلا أن الأمر كان جزءاً من تفريق أكبر: التفريق بين الزانيات والعفيفات كما هو واضح...

وهو جزء من تفريق بين 'المؤمنات' وغيرهن..

وإذا كان الرقيق قد اختفى، فإن الزنا والاستعداد له لم يختف (ولا يتصور أحد اختفائه قريباً).. سيبقى هناك من يطلب الزنا، وستبقى هناك نسوة مستعدات لذلك، وأخريات يرفضن بشرف وعفاف.. الحجاب إذن هنا صار هوية تعريفية تفريقية لكن التفريق لم يعد بين الحرائر والإماء، بل رجع إلى أصله في التفريق بين الشريفات وغيرهن، أي إن اختفاء الإمام لم يعد سبباً في خلع الحجاب كما يدعي ويروج البعض، بل صار مدعاة لجعل كل من ترتبط بالشرف والعفة أن ترتديه.. فتاريخية سبب النزول تفهمنا، على العكس مما يدعون، أن عدم ارتداء الإمام للحجاب كان لظرف عابر.. وأن اختفاء هذا الظرف سيجعل الحجاب عاماً لكل مؤمنة..

أكثر من هذا، صار الحجاب لا يمثل فقط الشرف أمام الزنا أو مقدماته والاستعداد له، بل صار يمثل التفريق بين منظومتين حضاريتين مختلفتين، منظومة تحترم المرأة وتحرص على تمييز أنوثتها مقابل منظومة أخرى تحرص على استثمار المرأة كأداة استهلاك وترويج وليس أداة متعة فقط، منظومة تسلخ المرأة وتجعلها وسيلة لترويج البضائع، منظومة لا ترى كبير إشكال في أن تظهر صدر المرأة من أجل بيع 'معجون أسنان' مثلاً!

الحجاب، على العكس من كل ما هو شائع، لا يحجب دور المرأة عن التفاعل الإنساني، فلو كانت المرأة لا تشارك في المجتمع، حبيسة في بيتها أو بيت أبيها لما تطلب الأمر أصلاً آية قرآنية تفصل في لباسها، لكن الحجاب يجيد أنوثتها فقط، لكي يكون تفاعلها الإنساني بناءً بمعزل عن المضاعفات الناتجة عن 'أنوثتها'.. وهي مضاعفات لا داعي لكران وجودها في كل المجتمعات مهما ادعت أنها تجاوزت الأمر.

ختاماً، أحب أن أذكر أن الحديث عن انتهاء وجود الإمام يحتوي على تفاؤل كبير وسداجة مفرطة، شخصياً أعتقد أن الرقيق لا يزال قائماً وإن اختلفت أشكاله وأساليبه، ربما النخاس التقليدي لم يعد له وجود، لكن بدلاً عن ذلك صار هناك وسائل إعلام وإيديولوجيات ومفاهيم تتحدث عن الحرية الشخصية والفردية والموضة والتعبير عن الذات.. إلخ، وكلها في الحقيقة تسلخ المرأة كإنسان، وتعتبرها أداة 'بغاء' مشاعية بدرجات مختلفة.. أعتقد شخصياً أن أسواق النخاسة في روما وبابل وبغداد العصر العباسي ستبدو في منتهى المحافظة مقارنة بما يجري الآن حتى في مجتمعات الأسواق والجامعات والحفلات العامة.. كل الذي تغير هو أن الجواري

المعاصرات صرن يعتقدن أنهن حرات، دون أن يعرفن أن عبوديتهن أقسى وأقوى لأنها غير ظاهرة، لأن القيود والسلاسل صارت داخلية، نفسية..

ومقابل كل ذلك، لا تزال هناك تلك النسوة الراضات لكل هذا، يتمسكن بمنظومة حضارية مختلفة.. وسيكون حجابهن هويتهم التي هي (أن يعرفن فلا يؤذين).

(يرجى العزو إلى شبكة القلم الفكرية عند نشر الموضوع في موقع آخر)

← للعودة للأعلى ↑ رجوع ←